

دراسة في علم السيكيوباتولوجي (الكتاب الثاني)



لوحات تشكيلية من العلاج النفسي
من وعى ديوان : أنوار النفس

(تابع) الحالة الثالثة:

حين يصبح الركن قبرا لا ملاذا (1 من 2)

(1)

في النشرة الأولى من هذه السلسلة بينا أن الرجوع إلى ركن خاص هو طبيعة بشرية سوية، بل لعلها مطلوبة، وهي تجرى في النوم مثلا، دون وعى كامل بها، ودون أن نسمى النوم ركنا مثلا،



وفي النشرة الثانية، عرض الكاتب خبرته الخاصة جدا، والتي عبر فيها عن علاقته بهذه القضية وحنينه الجارف إلى الانسحاب إلى ركن دافئ حان، ولكن تبين أن هذا الانسحاب لا يكون آمنا إلا إن كان واعداً بعودة هي أقرب إلى إعادة الولادة، ومرة أخرى نذكر أن النوم الصحيح هو إعادة ولادة (الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور).

في الحلقتين الخاليتين، اليوم وياكر، سوف نعرض الجانب الآخر من هذه الظاهرة، الجانب المرضى المعوق للنمو، الجاهز للانسحاب طول الوقت بمجرد التهديد بتكوين علاقة حقيقية مع آخر، سواء كان هذا الآخر حبيبا أو صديقا أو زوجا أو معالجا.

نعيد التذكرة ونحن نعرض هذه الخبرة بطبيعة هذا المتن، من حيث أنه لا يتعرض لحالات معينة، لا هي واقعية تماما، ولا هي حدثت كما جاء في المتن، وإنما هي محاولة تشكيل لهذه الظاهرة أو تلك في صورة شعرية استلهمناها من هنا وهناك،

هذه الحالة تقول لنا عن الوجه السلبي لهذا النزوع إلى الرجوع إلى الرحم.

الموقف في العلاج النفسي:

ماذا يمكن أن يحدث في العلاج النفسي، وهو يهدف أساسا إلى تجاوز هذه العودة الجبنة المتكررة بلا رجعة حقيقية، والتي أسماها المتن هنا (وفي كل هذا الفصل) "الموت"؟

هو موت نفسي، فهو لا يعنى الموت الذي هو إعادة بعث، ولا الموت باختفاء الجسد الذي تبين لي مؤخرا أنه أرقى بكثير من الموت النفسي: الجمود العدم الذي نعنيه هنا.

قلنا وزدنا وأعدنا أن الحياة حركة نمائية دائبة، وأن العلاج النفسي ليس إلا تحريك للحياة في اتجاهها، وأننا لا نكون بشرا إلا إذا مارسنا الوعي بأننا كذلك، مع من هو غيرنا من البشر الذي هو أيضا كذلك، وأننا إنما نمارس حياتنا "معا"، لكي نكون كذلك،

نكرر، ولن نمل، أن الكائن البشري قد صار مخرجاً في أنه يعنى أنه حي، وأنه ناطق، وأنه قادر من خلال اللغة وغيرها على التواصل مع آخر يحمل نفس الصفات، وأن هذا هو السبيل للنمو المضطرب في نبض حيوى حتى نهاية الفرد لتستمر الحلقات في أجيال أخرى، فإذا حال حائل دون استمرار هذه المسيرة، فهو المرض.

المرض النفسي من هذا المنطلق وقفة مؤقتة أو دائمة، وهو أيضا حركة إلى الوراء، وهو تفكيك دون تشكيل ناجح، مع احتمالات اندمالات تهمد الحركة باضطراب، وأيضا مع احتمالات خدعة التظاهر بالحركة الزائفة في الحل، وهذا ما نسميه في هذا العمل بالذات في أكثر من موقع، نسميه الموت، (النفسي) الذي هو موضوع الفصل الأول كله (تحت الاسم الأقدم: سبع جنازات)

العلاج النفسي هو محاولة لتفادي هذا المصير، بتعديل هذا المسار السلبي.

العلاج إذن هو:

تحريك الوقفة،

وفك العرقلة،

وتشكيل التفكيك،

وتحويل المسار إلى وجهته

الشائع - كما ذكرنا- هو أن العلاج "ترييح" و"تسكين"، ليكن الترييح خطوة على طريق العلاج أحياناً، لكنها ليست العلاج كل العلاج، العلاج هو **استعادة حركية الحياة** بكل ما تحمل من راحة وألم ومخاطرة وتواصل وافتراق وعودة.

العملية العلاجية لا تسير هكذا ببساطة، ألعابها والتواءاتها وخداعاتها هي بلا حصر، مهما بلغت النوايا الحسنة، ومهما بدا نشاط الحركة، فقد تكون الحركة في الحبل (كما في الحالة الأولى من هذا الفصل، "من شطى لشطى")، وقد تمتد أكثر قليلاً لكنها لا تتخطى مرحلة إعادة النص (سكريبت)، وهو ما يشير إلى أن خطوات معينة تعاد باستمرار لتنتهي إلى نفس النقطة، فينغلق النمو، بمعنى أنه لا يحدث أى تغيير مهما ضؤل، بسبب الانتهاء بعد كل دورة إلى نفس النقطة.

هذا الخداع وذلك التلاعب لا يقتصر على الكيان الفردى، بل قد يتورط فيهما نوع "من الأحياء" بأكمله، فيتوقف تطوره أو ينقرض

الفرق بين ما عرضنا في الحلقتين السابقتين، وبين هذا التراجع المرضى هنا إلى ركن قبر يمثل ما هو ضد الحياة خوفاً من التواصل، هو الفرق بين الصحة والمرض، وعلى قدر ما يطمئن هذا الشخص إلى أنه قادر على التراجع تماماً، تكون حركته -الظاهرة- نحو الآخر. الشرط هنا يُعلن من البداية هكذا:

الركن بتاعى متحصّر،

حازِغُهُ واسيكم،

ساعتين احس بكم.

حافظ كده

طالع ... نازل،

زى اليويو،

كده.

هذا الموقف لا يُعلن بداية هكذا في العلاج النفسى، وإنما يستنتجه المعالج حين يلاحظ أن مريضه جاهزاً لنسحب بمجرد أن يتهدد بالوعى بأن ثمة علاقة تنمو بينه وبين الطبيب. النص (السكريبت) يحدث هكذا عادة:

يتقدم المريض نحو الشفاء (ظاهرياً) فيبدي تفهماً، ويحاول التواصل، ويقترب من الواقع، ومن الآخر، ولا يعلن شروطه السلبية هذه صراحة، حتى لو كانت جاهزة من البداية بداخله، وهو عادة لا يعرفها، بل هو ينكرها إذا ووجه بها، ويتساءل أيضاً، ومعه حق "إذن لماذا حضر للعلاج؟" ثم إنه عادة يبدو وكأنه يستجيب بشكل نشط للعلاج، لكن عند مأزق النقلة النوعية، سرعان ما يرجع إلى موقفه الأول بكل عنفوان مقاومته، إن تصريح داخله هكذا: "أنه لا يفعل شيئاً إلا أنه **"يطلع وينزل مثل اليويو"**، هو الضمان الذى يشجعه على استمرار المحاولة مطمئناً أنه لن يتغير.

وهكذا ينقلب العلاج إلى ما يشبه تزجية الوقت، ما لم ينتبه المعالج ويحاول كسر هذه الحلقة.

دور المعالج:

المتن هنا ليست وظيفته أن يبين كيف يمكن كسر الحلقة بقدر ما هو معنى بتجسيد صلابة ونوع لعبة المقاومة من هذا النوع.

يمكن للمعالج أن يدرك أن التقدم خادع، وأنها لعبة اليويو (طالع نازل) التى لا تنتهى أبداً حين يلاحظ رجوع المريض إلى نفس المستوى الوجودى/السلوكى السابق تحت أى تهديد بالاقتراب أو بالتواصل، فإذا تكرر ذلك مراراً فإن المسألة لا تصبح علاجاً تطورياً نهائياً بقدر ما تصبح تأجيلاً وتسكيناً (وهذا طيب شريطة أن نعرف ذلك، وقد نقبله)

كل معالج، خصوصاً من ينتمى إلى العلاج من منظور النمو، يعرف هذه الخبة: خبة التحسن الخادع برغم ظاهر حسنه، تحسن كأنه الواجهة التى أعيد دهانها دون تغيير حقيقى والطبيب قد يلاحظ تكرار ذلك باستمرار،

هذه المقاومة هي من أعنف أنواع المقاومة التى تبديها الشخصيات الشيزيدية بوجه خاص، إذ أنها شخصيات سريعة الاستبصار، تلتقط بسرعة ما يهدف إليه المعالج، وتستجيب بحماس واضح على مستوى الأمل والرؤية والكلام والعقلنة، ولكنها تفعل ذلك لأنها واثقة من امتلاك آلية الانسحاب فور الطلب، وحين نستمع إلى داخل داخلها نجد المبرر جاهزاً، والمناورة معدة (كما رأينا في الحالة الأولى: من شطى لشطى)،

لا يوجد مجال للاتهام هنا، كما يفعل بعض المعالجين (إنت للى مش عايز تعمل علاقة أهه، = ها أنت لا تريد عمل علاقة مع آخر)، ذلك أن المريض (أو الشخص) المقاوم لهذه الدرجة عنده مبرراته، ربما ترجع لتكوين غائر في صورة برنامج جاهز ولد به، وربما لخبرات سابقة رسخت الخوف من الاقتراب الحقيقى والتواصل، وربما لهذا وذاك معاً، ومن ثم فإن أية نقلة نوعية في اتجاه تواصل حقيقى مع الآخر، حتى أثناء العلاج مع المعالج، هي **نقلة مرعبة**، بلا ضمان،

وهذا هو المتن يعلن لنا ما يقوله داخل هذا الشخص في هذه الحالة في الفقرة التالية:

أصل انا خائف.
أنا خائف موت،
أنا مَيِّتٌ خائف.
لكن قولِي:
هو الميت بيخاف؟
طبعاً بيخاف،
بيخاف يصحى.

وغدا نكمل استلهام المتن ونحن نتدارس أى موت هذا الذى نخاف أن نصحو منه.